

أثر الدلالة الإيقاعية على التضافر الدلالي في الجملة القرآنية

The Effect Of Rhythmic Semantics On Semantic Synergy In The Quranic Sentence

محمد جقاوة

جامعة غرداية، كلية اللغات والآداب، مخبر تحليل الخطاب والدراسات المعجمية والأدبية المقارنة

medfoudil62@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023-02-21 تاريخ القبول: 2023-06-02 تاريخ النشر: 2023-12-31

ملخص

لقد جاء بحثنا هذا مضيفا للدلالات المعروفة سابقا دلالة الإيقاع في الجملة القرآنية. ذلك أنّ إعجاز القرآن الكريم متعدد الأوجه، وإذا كانت الدراسات المتخصصة قد ركزت على الدلالة التركيبية، والدلالة الصرفية، والدلالة السياقية وغيرها، فإن الدلالة الإيقاعية تتضافر مع غيرها، وتسهم في تشكيل المعنى، وتسهم في إعطاء القرآن الكريم موسيقاه العذبة التي تضفي على السماع عذوبة تشد القارئ، وتبعد عنه الملل كلما كرر السماع أو القراءة. وقد تعددت العينات التي اخترناها مراعين فيها التعدد في أوجه التضافر الدلالي، والله من وراء القصد.

كلمات دالة: إيقاع، دلالة، تركيب، بنية الكلمة، انسجام

Abstract:

Our research came as an addition to the previously known significance of rhythm in the Qur'anic sentence, so that the miracle of the Noble Qur'an is multi-faceted, and if specialized studies have focused on structural significance, morphological significance, contextual significance, etc., then the rhythmic significance combines with others and contributes to the formation of meaning. And it contributes to giving the Holy Qur'an its sweet music that gives the hearing a sweetness that attracts the reader, and keeps him away from boredom whenever he repeats the listening or reading. The samples that we chose were multiplied, taking into account the multiplicity of semantic synergies and their faces behind the intent.

Key words: Rhythm, semantics, syntax, word structure, harmony

1. مقدمة:

من المظاهر الاعجازية التي لاحظها المختصون في العقيدة والفقہ الإسلاميين أن كل نبي أو رسول إنما أرسل بمعجزات تبد ما اشتهر به قومه في توجههم الحضاري. فمعجزة صالح . عليه السلام كانت تحول تمثال الناقة ناقة حقيقية تسعى، متجاوزا بذلك قدرات قومه في مجال النحت، وتطويع الصخور والجبال. وأما معجزة موسى فكانت تحول العصا حية عظيمة تسعى تلقف عصي وحبال السحرة التي يخيل للناس أنها حيات تسعى، أما معجزة السيد المسيح . عليه السلام . فهي شفاء المرضى من الأمراض المستعصية، بل تعدى الأمر ذلك إلى إحياء الموتى، ليتجاوز كثيرا ما وصل إليه قومه من علاجات للأمراض البدنية والنفسية، متأثرين في ذلك بالمنقول من الفلسفة اليونانية والإغريقية.

أما معجزة رسولنا الكريم . عليه الصلاة والسلام . فهي القرآن الكريم المعجز في فصاحته وبيانه، المتحدي لفحول البيان في كل مكان وزمان من خطباء وشعراء وبلغاء، تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ولو اجتمعوا لذلك¹. بل تحداهم أن يأتوا بأقل من ذلك (زهرة، 1998، صفحة 437)

ولا نكون مغالين إذا قلنا أن أروع وصف للقرآن وأوجزه كان ذلك الصادر عن الوليد بن المغيرة المشتهر بالفصاحة، العارف بجمال الخطاب وسر الفصاحة، وقد أرسله قومه عسى أن يعود إليهم بسقط يجده في ما يتلوه محمد بن عبد الله . عليه الصلاة والسلام . يتخذونه حجة لصرف الناس عنه، وخلاصة الأمر: "عن ابن عباس - رضي الله عنهم - أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأثاه، فقال: يا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا! قال: لم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أنني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟! فو الله ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن مني، والله، ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلو، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه! قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر، قال: (هذا سحر يؤثر) يآثره عن غيره، فنزلت: ذرني ومن خلقت وحيدا" (السيوطي، 2002، صفحة 279).

نستنتج . من قول الوليد بن المغيرة . أن القرآن الكريم ليس بالشعر ولا بالنثر المسجوع المألوف في حديث الكهان، وانه يعلو ولا يعلى عليه.

2.1 - الإشكالية:

ما دام القرآن الكريم ليس بالشعر ولا بالنثر فما هو إذن؟ ظهرت عن هذه الإشكالية جملة من الإشكاليات الفرعية أبرزها:

- هل القرآن الكريم نثر يتميز عن النثر المألوف بميزات؟ ما هي هذه الميزات؟
- هل القرآن الكريم شعر يختلف عن الشعر في أمور؟ ما هي إذن هذه الأمور؟
- هل القرآن جامع للشعر بالنثر، مخالف للمألوف من كلام العرب ونظمهم؟ لكن كيف ذلك؟

3.1 - أهداف الدراسة:

إن الهدف الأساس الذي تسعى إليه هذه الدراسة هو لفت انتباه المتخصصين في الإعجاز القرآني إلى دلالة الإيقاع الذي تتسم به الجملة القرآنية، والذي يتضافر مع غيره من الدلالات مشكلا إعجاز الكتاب الكريم.

4.1 - الدراسات السابقة:

المؤكد أن الدراسات التي تناولت الإعجاز القرآني أكثر من أن تحصى، ولا نكون مغالين إذا قلنا أن أهم كتاب تناول ظاهرة الإعجاز قديما هو كتاب عبد القاهر الجرجاني، الموسوم بدلائل الإعجاز، توجهت الأنظار إلى الإعجاز العلمي حديثا، وخصص لذلك ندوات وملتقيات شتى، برز في هذا المجال علماء أجلاء يتصدرهم اليمني عبد المجيد الزنداني. لكن ظلت ظاهرة إيقاع الجملة القرآنية في تضافرها ببقية الدلالات مغيبة في ما نعلم، وقد جاء هذا المقال منا محاولة للفت الانتباه لهذه القضية لا غير.

2 - مفاهيم لا بد منها:

قبل ولوج الموضوع، هناك جملة من المفاهيم المرتبطة به، نرى أنه لا بد من شرحها وتبسيطها، ليكون الموضوع في تناول القارئ الكريم.

1.2 - الشعر لغة:

جاء في لسان العرب: "شعر وشعر به شعراً وشعراً وشعرةً، مثنثةً، وشعري وشعري وشعورا وشعورةً ومشعورا ومشعورةً ومشعوراء: علم به، وفطن له، وعقله. وليت شعري فلانا، و. له، و. عنه ما صنع: أي ليتني شعرت . أشعره الأمر وأشعر به: أعلمه. ويستطرد صاحب اللسان قائلا: شعر :

غَلَبَ عَلَى مَنْظُومِ الْقَوْلِ، لِشَرَفِهِ بِالْوِزْنِ وَالْقَافِيَةِ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ عِلْمٍ شِعْرًا ج: أشعار. شِعْرٌ وشِعْرٌ شِعْرًا وشِعْرًا بَقَالَهُ، أَوْ شِعْرٌ: قَالَه.

2.2- الشعر اصطلاحاً: يكاد يجمع القدماء على أنه كلام موزون مقفى، فالوزن والقافية هما الحد الفاصل بين الشعر والنثر، ولا بأس أن نسوق هنا تعريف الشعر لابن طباطبا، إذ يقول: "الشعر كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطبتهم، بما خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته، مجَّته الأسماع، وفسد على الذوق، ونظمه معلوم محدود، فمن صح طبعه وذوقه لم يحتاج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن من تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحدق به، حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه". (طباطبا، 2005، صفحة 9).

أما ابن قتيبة الدينوري فيميز بين أنواع الشعر بقوله: "تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب: ضرب منه حسن لفظه ومعناه، وضرب منه حسن لفظه وجلا معناه، وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه، وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه" (الدينوري، 1958، صفحة 9).

3.2- النثر لغة: مصدر الفعل الثلاثي نثر. أي رمى الشيء وألقاه على نحو متفرق ومبعثر. ونثر الكلام: أرسله بلا وزن ولا قافية". (منظور، د ت، صفحة 2274).

وَالنَّثْرُ نَثْرَكَ الشَّيْءُ بِيَدِكَ تَرْمِي بِهِ مَتَفَرِّقًا مِثْلَ، نَثْرِ الْجُوزِ وَاللُّوزِ وَالسُّكَّرِ، وَكَذَلِكَ نَثْرَ الْحَبِّ إِذَا بَذَرَ، وَهُوَ النَّثَارُ؛ وَقَدْ نَثَرَهُ يَنْثَرُهُ وَيَنْثَرُ نَثْرًا وَنَثَارًا، وَنَثَرَهُ فَانْتَشَرَ وَتَنَاثَرَ؛ وَالنَّثَارَةُ: مَا تَبَاثَرَ مِنْهُ، وَالنَّثَارُ فَنَاتٌ مَا يَتَبَاثَرُ حَوْلِي الْخَوَانِ مِنَ الْخَبْزِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وقيل: نثارة الخنطة والشعير ونحوهما ما انتثر منه. وشيء نثر: منتشر، وكذلك الجمع. (منظور، د ت، صفحة 4116)

4.2- النثر اصطلاحاً: تعددت تعريفات النثر اصطلاحاً، بتعدد أنواعه ومجالات استعماله، فهناك المقال وهناك الخاطرة وهناك المقامة والقصة والأقصوصة والرواية والمسرحية.. الخ. إن كل هذه الأجناس تكتب نثراً، و لكل منها خصائص نثرية تميزها عن غيرها، و يمكن أن نميز هنا بين النثر المقيد والنثر المرسل، أما المقيد فمنه: "السجع الذي يؤتى به قطعاً، ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعاً" و أما المرسل فهو: "الذي يطلق فيه الكلام إطلاقاً، ولا يقطع أجزاء، بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها" ويستعمل النثر عموماً على رأي ابن خلدون في: "الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم" (خلدون، 2004، صفحة 643).

5.2 - القرآن لغة: القرآن اسم علم على كتاب الله ليس مشتقاً، والثاني: أنه مشتق من فعل مهموز؛ وهو: قرأ، اقرأ، ويعني: تفهم، تفقه، تدبر، تعلم، تتبع، وقيل: تنسك، تعبد، وقيل: اقرأ. أي تحمّل. فالعرب تقول: ما قرأت هذه الناقة في بطنها سلاً قط؛ أي: ما حملت جنيناً قط. (منظور، د ت، صفحة 3563).

6.2 - القرآن اصطلاحاً: "هو كلام الله تعالى المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، المعجز بلفظه ومعناه، المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بالتواتر، المكتوب في المصاحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس" (الزحيلي، 2002، صفحة 988).

لقد توجه بحثنا هذا إلى دراسة الجمل القرآنية لا إلى دراسة الآيات القرآنية، رغبة منا في الاختصار الذي تتميز به الجملة في دلالتها الاصطلاحية عن دلالة الآية القرآنية في دلالتها الاصطلاحية عند القراء، والمهتمين بالدراسات القرآنية جميعاً.

7.2 - الجملة لغة: واحدة الجمل، والجملة: جماعة الشيء، وأجمل الشيء جمعه عن تفرقة، وأجمل له الحساب كذلك، والجملة: جماعة كل شيء بكماله من الحساب وغيره، يقال: أجملت له الحساب والكلام. قال تعالى: ((لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة)) الفرقان. 32. وقد أجملت الحساب إذا رددته إلى الجملة، والجملة على وزن فعلة من قول العرب: جمل الشيء يجمله، من باب نصر، بمعنى جمعه، وشبيهه بما إطلاق الجمل بضم الجيم والميم على الجماعة من الناس، ومادة الجيم والميم واللام تدور حول ثلاثة معاني هي: التجمع وعظم الخلق والحسن. (منظور، د ت، صفحة 686).

8.2 - أما اصطلاحاً: "هي مركب إسنادي، أفاد فائدة وإن لم تكن مقصودة كفعل الشرط، نحو: إن قام، وجملة الصلة. نحو: الذي قام أبوه. والقول أعم من الجملة، لشموله المقصود وغير المقصود، مفيداً أو غير مفيد." (الهاشمي، د ت، صفحة 11).

الآية اصطلاحاً: طائفة من الكلمات ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة القرآن الكريم، ولا سبيل لمعرفة أول الآية وآخرها إلا بتوقيف الشارع، فلا مجال فيها للقياس والرأي، بدليل أن العلماء عدوا (المص) آية، ولم يعدوا نظيرها وهو (المر) آية، وقد اختلفوا في عدد آيات القرآن الكريم، وإن كانوا اتفقوا على أنه يتجاوز ستة آلاف آية، والراجح في عدد الآيات أنه 6236 آية. أما ترتيب الآية وموقعها في السورة فتوقيفي، كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يتوقف فيه على توجيه جبريل عليه السلام. (الزحيلي، 2002، صفحة 988).

حين قال الوليد قوله الشهيرة في القرآن مؤكدا أنه ليس بالشعر وليس بالنثر المألوفين، فإننا واثقون انه كان يعني جدا ما يقول، ولكن كم من القوم عرف مقصده ومرامه؟؟ أعتقد أن الكثيرين اقتنعوا أن القرآن كلام لا ينتمي لا إلى الشعر ولا إلى النثر وانتهى الأمر بهم عند هذا الحد .

لكن ما كان يقصده الوليد . في اعتقادنا . شيئا أعمق مما ذهب إليه القوم بكل تأكيد. وهو ما نحاول الإفصاح عنه في مقالنا هذا إن شاء الله.

إنّ الإنسان الذي وهب أذنا مرهفة حساسة، فإنه لا محالة يستشعر الجرس الموسيقي للغة، وإذا أضاف إلى ذلك رصيда لغويا فصيحاً من خلال مطالعته لفحول الفكر والبيان، ودأب على قراءة الأشعار، فإنه ليضطرب ويشعر بمتعة ما بعدها متعة عند سماعه القرآن، هذه المتعة يستحيل أن يجدها في غير القرآن الكريم، إنه ليستشعر إيقاعاً جميلاً أحلى من إيقاع الشعر تجدداً وتنوعاً وتدفقاً، وأحلى من أي تركيب نثري، يصغي في نشوة وذهول ويتمنى أن لا ينقطع ذلك الصوت الشجي ذي الإيقاع الجميل المختلف. والواقع أن هذا الإحساس الجميل تصنعه في القرآن موسيقى داخلية وأخرى خارجية في انسجام رهيب هو موطن الإعجاز ومدار التحدي.

إن للجملة القرآنية تفعيلاً التي لا تختلف عن تفعيلات الشعر إلا في عددها وفي ترتيبها وتوقعها. ونخط الترتيب والتتابع هما اللذان يعطيان القرآن خصوصيته وإعجازه الإيقاعي، فأنت حين تقرأ مثلاً قول الحق تبارك و تعالى: "والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس" (التكوير، 17). فإنك أمام جملة من المتحركات والسواكن يشكلان إيقاعاً مختلفاً رائعاً، عند تقطيعك الجملة ستجد ما يلي: /0/0//0/0//0/0//0/0//0/0 .

إن هذه الجملة القرآنية جمعت بين تفعيلات المحدث والرجز: فعُلمن متفعلن متفعلن متفعلن

4. التضايف الدلالي في القرآن الكريم:

مصنوفة وزراري مبثوثة ((الغاشية، 16/15/14/13،

إننا إزاء هذا التركيب، نجد تنابعا عجيبا لمقاطع منسجمة تصف الجنة ونعيمها، واللافت للانتباه أن هذه المقاطع . وبرغم طولها . خلت جميعها من حروف الشدة إلا قليلا (ك،ب) في كلمة أكواب، محققة الانسجام اللغوي مع الانسجام المكاني، فالجنة لا تنسجم مع الشدة، لذا خلا وصفها من تعبير تكون جل حروفه حروف شدة، وإذا نظرنا إلى الفواصل ظهر دون جهد كبير أنها متطابقة في إيقاعها، موحية بالنظام والترتيب العاليين في دار الخلد.

وعند تقطيعنا لهذه الفواصل نجد ما يلي :

فيها سرر مرفوعة 0//0/0/0//0/0/0 فعلن فعلن مستفعلن

وأكواب موضوعة 0//0/0/0/0/0/0 مفاعيلن مستفعلن

أما إذا أسقطنا واو العطف فسيصبح التقطيع: 0//0/0/0/0/0/0، فعلن فعلن فاعلن

ونمارق مصفوفة 0//0/0//0//0 فعلن فعلن فاعلن

وزراري مبثوثة 0//0/0/0/0//0 فعلن فاعلن فاعلن

سنكتشف في هذا الإيقاع عجبا، فأدوات الجنة مختلفة إنها سرر وأكواب ونمارق وزراري .. الخ. ولكن النظام والإتقان هما الجامعان بين كل ذلك، لذا غلبت تفعيلة المتدارك الموحية بالتتابع النظامي، ولا ضير أن يضاف إلى ذلك الإيقاع المعبر عن هذا الاختلاف الأدوي، إذ نجد ثمة فاعلن ومستفعلن ومفاعيلن حتى حال تثبيت واو العطف.

في القرآن الكريم تكون التفعيلات التي تبنى عليها الجملة منسجمة جدا مع المقام والسياق ، تأكيدا لهذا أقدم هذه العينة، قال تعالى : ((و برزت الجحيم لمن يرى فأما من طغى و آثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى))، (النازعات، 36..39). إننا في مقام يقتضي القوة، والقوة في العربية تناسبها الشدة التي تصدرت التركيب في الفعل برزت، دعمتها كثرة الحركات، فعند تقطيع الآية الكريمة السالفة سنجد ما يلي: وبرزت الجحيم لمن يرى : 0//0//0/0//0//0 مفاعلتن مفاعلتن فعل

نلاحظ أن إبراز الجحيم يقتضي القوة لذا استعمل المولى صيغة برزت بتضعيف الراء والموقف يقتضي الحركة لذا كان عدد الحركات أكبر من السواكن كثيرا، اثنا عشر متحركا مقابل خمسة سواكن، (05/12) فإذا انتقلنا إلى قوله تعالى : فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا، فالتقطيع يكون: 0//0/0/0//0//0/0/0/0/0 مفاعيلن مفاعلتن مفاعلتن مفعولن . نلاحظ أن عدد الحركات هو 15 مقابل 10 سواكن، إن نسبة السواكن عالية لان الموقف موقف تفصيل وبيان

ذهني لا موقف حركة، ولأن الأمر مرتبط بالدين، التي لا يشعر أصحابها وعشاقها بالخوف والخطر، فإن حروف الشدة ما تجاوزت الاثنين، وقد تصدرت الطاء الفعل طعى، والطاء هي أقوى حروف الشدة، ليدل ذلك على أن الطغيان هو اشد أفعال الإنسان ضد أخيه الإنسان، فإذا انتقلنا إلى قوله تعالى: فإن الجحيم هي المأوى، كان التقطيع: 0/0/0///0/0/0//. فعولن مفاعلتن فعولن، نجد الجملة تصدرها تفعيلة المتقارب (فعولن) الدالة على القوة تليها تفعيلة الوافر (مفاعلتن) وهي تتسم بكثرة حركاتها (2/5) و هي تدل على الحركة رغم غياب الفعل فالجحيم تقتضي الدخول الإجباري ، تليها تفعيلة المحدث التي تتساوى حركاتها بسواكنها وهو ما تقتضيه الحال بعد دخول الجحيم، إذ تكثر الحركات والسكنات في تعاقب سريع .

ليس هذا وحده ما يشد القارئ أو السامع في القرآن الكريم، فثمة موسيقى أخرى أقوى و هي مدار إعجاز القرآن و تفرد، إنها الموسيقى الداخلية للكلمات منفردة ومتصلة بغيرها في التركيب، وهذه الخاصية ينفرد بها الكتاب الكريم من ألفه إلى يائه، ولعل أول عينة نقدمها هي قوله تعالى: ((إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاك من أرضك بسحرهما ..))، (طه، 76). وما قدمتها إلا لكثرة لغط بعض الجهلة بالعربية فيها، فقد زعموا أن الأصل هو نصب اسم الإشارة (هذين) لأن المقام يقتضي النصب، وكان ينبغي أن يردوا على أنفسهم، إذ لو كان القرآن كلام محمد . عليه الصلاة والسلام . كما يزعمون ويفترون، لقال: إن هذين لساحران يريدان.. الخ . فما رفع . عليه الصلاة والسلام . اسم إن مرة واحدة في ما وصلنا منه، إلى أن لقي ربه . بعيدا عن القراءات والتأويلات المعروفة لدى أهل الاختصاص، نتساءل: لماذا قال تعالى: ((إن هذان لساحران يريدان ..)) ولم يقل : إن هذين ؟؟ الأمر لا يقتضي نباهة كبرى، انك لو قرأت أمام إنسان أذنه مرهفة، تارة بالرفع وتارة بالنصب، فإنه ليدرك ويشعر ببساطة تامة أن الإيقاع الداخلي لهذه الجملة هو أحلى كثيرا برفع اسم الإشارة (إن هذان) إنها أخف على اللسان وأحلى في جرسها الموسيقي، وإذن فقد أثر المولى عز وجل الخفة وانسجام الإيقاع، وهذا ما ينسجم كذلك مع المرفوعات المتتالية بعد اسم الإشارة . نقصد: لساحران يريدان . لقد كان هذا الإتيان للسابق على اللاحق خروجاً عن المألوف، محققاً جمالاً وانسجاماً وإيقاعاً لا يحققه المؤلف، وهذا الذي نميل إليه ونرتاح له بعيداً عن بقية التأويلات والتخريجات كما أسلفنا.

الكلمة في الجملة القرآنية تنسجم مقاطعها داخليا وتنسجم خارجيا مع الكلمات المشكلة للجملة، فلا تجد كلمة واحدة موضوعة في غير موضعها، حتى إن القارئ للقرآن يستبعد فكرة

الترادف، وقد يلغيناها تماما، إذ لا يمكن أن تحل كلمة محل أخرى ذلك شيء مستحيل، و سأقدم عينتين في هذا السياق، قال تعالى: ((ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة)) الإسراء 32، إن الفعل (تقربوا) قد تموضع في هذا التركيب تموضعا مذهلا متفردا بحيث يستحيل أن يحل لفظ آخر محله، انه يجعل من الترادف أمرا غير ممكن وغير مقبول البتة، والفعل هنا يتعدى الدلالة المعجمية إلى دلالات أخرى نفسية وثقافية واجتماعية، فللفعل تقربوا في هذه الآية الكريمة دلالتان: دلالة مادية وأخرى معنوية، والمقام لا يسمح بتحليل ذلك، فإذا انتقلنا إلى أصوات الكلمة: تق/ ر/ بوا، نجد أنها تقطع مسافة بين التاء والقاف وتعود إلى الراء وتستمر إلى الباء وهي حرف شفوي، وهذا الطول في مسافة النطق يعطي الكلمة عذوبة وروعة لا نجدها في الكلمات القريبة منها، كما لو قلنا: ولا تدنوا من الزنا مثلا، علينا أن نشير هنا . ليتضح القصد . إلى أن جهاز النطق هو أشبه ما يكون بآلة نفخية، الناي مثلا، وكلما طالت المسافة بين الأصوات كانت الكلمة أعذب في النطق والسمع . حتى وإن اقتضى ذلك الذهاب والإياب . إننا حين نقارن مثلا بين الفعل بدع والفعل بعد، نجد أن أصوات بدع تسير في خط واحد مستقيم، من الباء إلى الدال إلى العين، عكس أصوات الفعل بعد، إذ ثمة مسافة بين الباء والعين في أقصى الحلق تضاف إليها مسافة العودة إلى الدال، هكذا تكون المسافة بين الأصوات في الفعل بعد أطول منها في الفعل بدع ، وهذا الطول كان وراء عذوبة الكلمة وتفوقها على الأخرى، و هذا حال كل الكلمات القرآنية فلا تترك الأبعد إلى الأقصر.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نلاحظ أن الالتقاء بين التاء والقاف في الفعل تقربوا يعطي جرسا وانسجاما لا يتحقق بنفس القوة مع التاء و غيرها حتى وإن بعد الرديف، فقولنا : تق أحلى من قولنا : تد أو تح أو غيرها.

ولو عدنا إلى الفعل تقربوا وتأملنا الأصوات المشكلة له فإننا نجد التاء هي المتصدرة، ومن صفاتها الهمس والشدة والاستفال والانفتاح والإصمات، يليها القاف ومن صفاته: الجهر والشدة، والاستعلاء، والانفتاح، والإصمات، والقلقلة، فإذا انتقلنا إلى الراء فإنها تتصف بالجهر والبينية والاستفحال والانفتاح والإذلاق والانحراف والتكرير (تقربوا) إن هذه الأصوات كلها تجمع بين كل الصفات، ويطابق ذلك دلاليا تجنب كل المؤديات إلى الزنا على تعددها وكثرتها، وهذا ما يقتضيه المقام، فإذا انتقلنا إلى كلمة الزنا فإننا نسقط (ال) التعريف الشمسية ونبقي حرف الزاي والنون وألف المد ومن صفات الزاي الجهر والرخاوة والاستفال والانفتاح والإصمات والصغير، وتتصف

النون ب : الجهر والبينية والاستفال والانفتاح والإذلاق , و هي صفات متناغمة منسجمة مع المقام.

عينة أخرى نقدمها في هذا السياق هي قوله تعالى: (تلك إذن قسمة ضيزى)، (النجم، 22). إن الإيقاع الخارجي للآية الكريمة محسوس ملفت للانتباه وهي عند التقطيع تتشكل من: 0/0/0/0/0/0/0/0 يمكن قراءتها : متفعّلن فاعلن فعلن، وبإسقاط متحرك الابتداء وساكنه يصبح الإيقاع هو: فعّلن فاعلن فعلن، إن ما يلفت الانتباه أكثر في هذا الإيقاع الجميل هو هذا التعاقب الرائع بين فعّلن وفاعلن ثم هذه النهاية الجميلة بتفعيلة المحدث (0/0: ضيزى)، إن كلمة (ضيزى) جاءت منسجمة تمام الانسجام مع المقام، ولا يمكن لأي كلمة غيرها أن تؤدي المعنى بدقتها وروعيتها. وضيزي تعني جائزة غير مستوية، ناقصة غير تامة،(كثير، 2000، صفحة 1780).

ينبغي الإشارة إلى أن التفعيلة القرآنية ليست بالضرورة تلك التفعيلة الواردة في الشعر وإن كانت الأغلبية كذلك , إن بعض التفعيلات قد تتكون من أربع متحركات متعاقبة دون ان تفقد عذوبتها مثال ذلك قوله تعالى : ((أنلزمكموها))، هود، 28. (0/0/0/0/0/0) بل إننا نجد أنفسنا أمام أكثر من أربع متحركات ومع ذلك يظل للإيقاع عذوبته وانسجامه , نجد هذا - مثلاً - في قوله تعالى : ((و إذا الصحف نشرت))، التكوثر، 10. (0/0/0/0/0/0) بقليل من تشبيع فاء (الصحف) يصبح الإيقاع على هذا الشكل : (0/0/0/0/0/0) و نكون أمام مجزوء المحدث دون أي علل.

فإذا انتقلنا إلى قوله تعالى: ((فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا))، الكهف، 97. نجد أنفسنا إزاء اختلاف صوتي بين فعلين من جنس واحد، فالفعل استطاعوا غير الفعل استطاعوا دلاليا، والفارق تصنعه التاء المحذوفة في الفعل الأول والمضافة في الفعل الثاني. وما سقطت التاء في الفعل الأول وأضيفت إلى الثاني إلا لأن حجم القوة المستعملة في الإظهار أقل من القوة المستعملة في النقب، فكانت الزيادة للتاء مقابل الزيادة في الجهد المبذول في النقب. و مما يلفت الانتباه تركيباً في هذه الآية الكريمة هو عطف الأقوى على الأقل قوة وهو تدرج يقتضيه السياق و تفرضه الحال، و كأن الواو تجاوزت وظيفتها الجمعية إلى وظيفة أخرى هي الجمع والترتيب والتدرج معا.

إن إيقاع الآية الكرّمة هو : //0/0/0/0/0// /0/0/0/0/0/. تتعدد قراءة هذا الإيقاع عروضيا إذ يمكن أن نقرأ: فعولن مفعولن مفاعلتن فِعُولن مفاعِلين، ويمكن ان نقرأ: مفاعيلن مستفعلن متفاعلن فاعن فعلن ..الخ. إن الذي يعنينا أكثر هو بناء الفعلين: استطاعوا واستطاعوا إيقاعيا، داخل التركيب، إذ نجد الأول ـ داخل التركيب ـ يتشكل من عدد متساو من المتحركات والسواكن (/0/0)، ونجد الثاني يتشكل من ثلاثة متحركات وساكنين (/0/0)، وزيادة الحركة دليل على زيادة الجهد. نصل بذلك إلى إبراز هذا التضافر بين الدلالة الصرفية والدلالة التركيبية والدلالة الإيقاعية

وأيضاً: فاعلاتن مستفععلن متفععلن فاعلاتن. وهي كلها تفعيلات الخفيف المتسمة بلينها وعذوبتها، والملاحظ أن الحركات غلبت على السواكن، وفي هذا دلالة على أن خشية الله حركة، ويزداد عدد الحركات في كلمة علماء لتصل إلى أربع مقابل ساكن واحد، وفي هذا دلالة على حركية أهل العلم لا على سكونهم.

ننتقل إلى تضافر دلالي بين الإيقاع والتركيب القائم على مركبة علامائية مشكلة من الحرف والضمير، يتعلق الأمر هنا بقوله تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر

منكم))، النساء، 59. مرة أخرى تلفت انتباهنا عدة ظواهر دلالية مرتبطة بالتركيب والإيقاع. إن أي محاولة لتغير كلمة في الآية بكلمة أخرى مرادفة لها أمر مستحيل لا من حيث الإيقاع ولا من حيث الدلالة، إن المركبة (من/كم) آخر الآية يمكن استبدالها بالإضافة المباشرة كأن نقول: وأولي أمركم، ويمكن استبدالها بمركبة أخرى كأن نقول: وأولي الأمر عليكم، أو وأولي الأمر فيكم، أو وأولي الأمر بينكم. ذلك ممكن لغة ومعنى، ولكن يستحيل أن تؤدي أي مركبة بديلة المعنى الدقيق الرائع الذي تؤديه المركبة (منكم)، لقد أفادت المركبة (منكم) في الآية الكريمة ثلاث معاني لا تستقيم الحياة إلا بها، ولن تستقيم بغيرها أبداً، هذه المعاني هي: الانتماء والانتقاء، والتبعيض. يلفت انتباهنا أيضاً في الآية الكريمة سقوط الفعل أطيعوا من أمام أولي الأمر منكم، فلم يقل المولى عز وجل: وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وأطيعوا أولي الأمر منكم، وفي هذا دلالة قوية على أن طاعة ولي الأمر مرتبطة بطاعة الله، وطاعة رسوله، كما يلفت انتباهنا التدرج المنطقي في الآية الكريمة، إذ الطاعة أولاً لله عز وجل، ولرسوله باعتباره المبلغ الأمين عن ربه ولا مكان عنده لغير التبليغ الصادق الأمين، وبعد ذلك تأتي مكانة ولي الأمر الواجب طاعته لأنه المحقق بقيادته لأمرته الاستخلاف الموعود ما أطاع الله ورسوله.

إيقاعياً نلاحظ أن التركيب يقوم على فعل الطاعة، وقد تكرر الفعل أطيعوا مرتين في التركيب، وعند التقطيع نجد أنفسنا أمام ثلاث حركات وساكنين: (0/0//)، إننا أمام تفعيلية المتقارب الدالة على القوة والسرعة، والمقام يقتضي ذلك فالطاعة حركة واستجابة للأمر ولذا غلبت حركات الفعل سكوناته.

5 - خاتمة:

جاءت هذه المحاولة منا إدراجاً للدلالة الإيقاعية في القرآن الكريم، لنصل إلى جملة من النتائج أهمها:

. القرآن الكريم ليس بالشعر، ولا بالنثر، فهو يجمع بين انسيابية النثر وإيقاع الشعر مع تجاوز إيقاعات الشعر إلى غيرها أحياناً .

. للقرآن الكريم إيقاع أجمل من إيقاع الشعر، ذلك أن إيقاع الشعر يتميز بالرتابة، وإيقاع القرآن الكريم يتميز بالتنوع والتجدد المستمرين المكسرين للرتابة .

. تنوع التفعيلات وتعدد في القرآن الكريم متجاوزة تفعيلات الشعر في عددها وتنوعها وجمالها.

1. التفعيلة في القرآن الكريم قد تصل إلى أربعة متحركات متعاقبة، و قد تصل إلى أكثر من ذلك، وتظل لها عذوبتها وجاذبيتها.
2. في القرآن الكريم لا يمكن استبدال كلمة بكلمة مرادفة لها، فذلك يؤدي إلى الخلل في الدلالة والإيقاع معا.
3. في الجملة القرآنية يتحقق التضافر الدلالي بشكل كبير، لا يمكن أن يتحقق في النثر الخالي من الإيقاع إلا في ما ندر. ولا يتحقق في الشعر ذي الإيقاع الرتيب.
4. لذة الإصغاء إلى القرآن الكريم يصنعها الإيقاع الجميل المتنوع في تفعيلاته، والمنسجم مع المقام.
5. ذلك ملخص ما تم التوصل إليه، آملين أن يكون مقالنا هذا على تواضعه بداية للدراسات المتخصصة في الدلالة الإيقاعية في كتاب الله الكريم.

المراجع

1. أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن. دار الفكر العربي، مدينة نصر، القاهرة، طبعة جديدة، 1998.
2. السيد أحمد الهاشمي، القواعد الأساسية للغة العربية. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ت.م: 1354هـ.
3. ابن خلدون، مقدمة العلامة ابن خلدون. دار الفكر، مكتب التوثيق والدراسات، بيروت، لبنان، ط1، 2004.
4. ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء. تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ج.م.ع.
5. أبي الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار بن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2000.
6. ابن منظور، لسان العرب. تحقيق عبد الله علي كبير وآخرون، دار المعارف، بيروت، لبنان.
7. جلال الدين السيوطي، أسباب النزول. مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 2002.
8. محمد أحمد ابن طباطبا، عيار الشعر. شرح وتحقيق عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط2، 2005.
9. وهبة الزحيلي وآخرون، الموسوعة القرآنية الميسرة. دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 2002.

